قال لي أبو القاسم بن الجِبْراني : كان أبو محمد القاسم بن علي الحريري عمل بيتين وقد أوردهما في المقامات ، وقال الناس : لا ثالث لهما وهما قوله :

لا تسأل المرء من أبوه ورز[1] خلاله ثم صله أو فاصرم
فما يشين السلاف [2] حين حلا مذاقها كونها ابنة الحصرم[3]

قال : فعملت بيتاً ثالثا وهو قولي :

وإن غدا راقياً مراتب ذي أصل عريق فلا تقل حص رم

قلت : وبيتا الحريري أخبرني بهما الشيخ العلامة تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكِنْدِي قراءة مني عليه بدمشق قال : أخبرنا جماعة منهم : الشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي ، مجد الاسلام عبيد الله بن القاسم بن علي ، ح .

وأخبرنا ضياء الدين الحسن بن هبة الله بن عمرو الموصلي قال : أخبرنا أبو سعيد محمد بن علي العراقي ، وسعيد بن المبارك بن علي بن الدهان ، ح .

وأخبرنا عبد اللطيف بن يوسف بن علي البغدادي وأبو بكر عبد الله بن عمر ابن علي القرشي قالا : أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن النقور قالوا كلهم : أنشدنا أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري ، فذكر البيتين .

توفي أبو القاسم أحمد بن هبة الله بن الجبراني الطائي بحلب يوم الاثنين سابع (١١٠ ــ و) شهر رجب من سنة ثمان وعشرين وستمائة،ودفن في سفح جبل جوشن .

أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن ابي جرادة :

أبو الحسن بن أبي الفضل بن أبي غانم بن أبي الفضل بن أبي الحسن الحلبي ، القاضي العُقَيْلي ، والدي ، وتمام نسبه قد ذكرناه في ترجمة عم أبيه أبي الحسن أحمد بن هبة الله بن أحمد .

---

١ ــ من راز الامر يروزه ، إذا جربه وقدره .
٢ ــ الخمرة .
٣ ــ مقامات الحريري ط . القاهرة (مطبعة محمد علي صبيح واولاده) : ٤٢٣ (المقامة الثامنة والثلاثون) .

ولي القضاء بحلب وأعمالها في سنة خمس وسبعين وخمسمائة في دولة الملك الصالح اسماعيل بن محمود بن زنكي ، ومن بعده في دولة عز الدين مسعود بن مودود ، ودولة عماد الدين زنكي بن مودود ، وصدراً من دولة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فانتقلت المناصب الدينية بحكم المذهب من الحنفية إلى الشافعية[1] ، فعزل والدي عن القضاء في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، ووليه القاضي محي الدين محمد بن علي قاضي دمشق .

وكان عمي أبو غانم إذ ذاك مجاوراً بمكة حرسها الله ، فحج والدي تلك السنة ، واجتمع به بمكة ، وعاد إلى حلب .

وكان والدي قبل ولايته القضاء قد ولي الخطابة بقلعة حلب في أيام نور الدين محمود بن زنكي ، وخطب بالمسجد الجامع بحلب في أيام ولده الملك الصالح اسماعيل نيابة عن أخيه أبي غانم ، وولي أيضا قبل ولايته القضاء في أيام الملك الصالح خزانة بيت المال .

وكان رحمه الله حسن السيرة في أحكامه ، جاريا فيها على أحسن قانون ، متحرياً في قضاياه ، مقيما لناموس الشريعة المطهرة ؛ وكان رحمه الله يقول لي : يابني والله ما (١١٠ ــ ظ) أوثر لك أن تتولى القضاء ، فإن عرض عليك لا تتوله فإنني ما استرحت منذ وليته حتى تركته ، ولكني أوثر أن تكون مدرساً ، وأن تتولى مدرسة الحلاويين ، فقدر الله تعالى أن وفقني لما كان يؤثره لي بعد وفاته .

وكان رحمه الله قد سمع أباه القاضي أبا الفضل هبة الله بن محمد بن أبي جرادة ، وأبا المظفر سعيد بن سهيل بن محمد الفلكي وزير خوارزم ، والشيخ أبا زكريا يحيى ابن المنصور الزاهد المغربي ، وأبا محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن جُزَي الأندلسي والشيخ محمد بن علي بن محمد التِّرمِذي ؛ وحدث عن هؤلاء ، وسمع جماعة من شيوخنا مثل : يحيى بن عقيل بن شريف بن رفاعة السعدي ، وأبي اليُمن الكِنْدي ، وأبي علي الأوقي ، وأبي عبد الله الدَرْبَنْدي ، وجماعة غيرهم ، وكان يحضر قراءتي عليهم .

---

١ ــ كان صلاح الدين شافعي المذهب له ترجمة مفيدة في طبقات الشافعية للسبكي .

وأخبرني أن مولده بحلب سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة .

قال لي عمي أبو غانم : مما أذكره لك من فضل والدك أنني كنت مجاوراً بمكة وبها الشيخ ربيع بن محمود المارديني ، فقال لي في بعض الايام : يا أخي قد ألهمني الله تعالى أن أمضي كل ليلة ، أو قال : كل يوم ، إلى الملتزم ، وأدعو الله تعالى أن يُخلص أخاك أبا الحسن من القضاء ، فقدر الله تعالى أن استجاب من الشيخ ربيع ، وترك والدك القضاء ، وحج من عامه ذلك ، وجاء إلينا إلى مكة في الموسم .

ذكر لي عمي عندما توفي والدي في معرض عناية الله تعالى به حيث ألهم الشيخ ربيع بن محمود الدعاء له ، واستجيب له ، وكان الشيخ ربيع أحد الأولياء (١١١ــو) الظاهرة كرامتهم ، واجتمعت به بحلب ، ودعا لي في حياة والديّ رحمهما الله .

أخبرنا والدي أبو الحسن أحمد بن هبة الله بن محمد بن أبي جرادة قراءة عليه بحلب حرسها الله قال : أخبرنا أبو المظفر سعيد بن سهل بن محمد الفلكي إملاءً بالمدرسة النوريه بحلب في يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة قال : حدثنا الشيخ الزاهد أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن عبيد الله المديني إملاءً بنيسابور قال : أخبرنا القاضي الجليل أبو بكر أحمد بن الحسن بن أحمد الحيري قال : أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي قال : أخبرنا عبد الرحيم بن مُنيب المَرْوَزِي قال : حدثنا يزيد بن هرون قال : أخبرنا حميد عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا عليكم أن لاتعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له فإن العامل يعمل زمانا من عمره أو برهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه لدخل الجنة ، ثم يتحول فيعمل عملا سيئا ، وإن العامل ليعمل زمانا من عمره بعمل سيء لو مات عليه لدخل النار ، ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً ، فإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته » قالوا : يارسول الله وكيف يستعمله قبل موته ؟ قال : « يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه » [1] . (١١١ ــ ظ) .

توفي والدي رحمه الله ليلة الجمعة لثلاث بقين من شعبان سنة ثلاث عشرة وستمائة بمرض الترّاقي ، وهو طلوع ظهر في ظهره بين كتفيه على محاذاة القلب ،

---

١ ــ انظره في كنز العمال : ٥٨٩/١ .

ويقال له الشقفه ، ودفن يوم الجمعة بعد الصلاة في التربة المختصة بأهلنا بالقرب من مقام إبراهيم عليه السلام .

وكان رحمه الله في مرضه ذلك يطلب مني أن أقرأ له شيئا في كتاب « أدب المريض والعائد » لأبي شجاع البسطامي ، ويسألني أن أورد له أشياء وردت في الصبر وماينبغي للمريض أن يقوله ويدعو به مما ينفعه لآخرته ، وكان إذا قال له أحد من الجماعة : أبشر بالعافية يقول : والله إني لا أكره الموت ، من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، وأوصى بإخراج شيء من ماله وافر يتصدق به على الفقراء والمساكين ، ولما أحس بالموت جعل يقول في تلك الليلة التي توفي فيها ماقاله النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم أعني على سكرات الموت » ثم استدعى بسواكٍ فاستاك به ، وسمعه من كان يتولى تمريضه من جماعتنا وهو يقول : هذا ذو الكفل يصلي ، وقال : أعطوني سُبْحَة الشيخ أبي الحسن ــ يعني ــ الفاسي ، وكان من أولياء الله تعالى وكبار الزهاد ؛ ثم إنه طلبني ، وكنت في ناحية الدار ، فحضرت إليه ، فالتفت فرآني واستدعاني إليه ، ثم قبّل فمي ، فوجدت شفتيه قد بردتا ، فعلمت أنه في النزع ، ولما احتُضر جعلت أنا وعمي أبو غانم نلقنه الشهادة وهو يتشهد معنا ، وقرأنا سورة الإخلاص فجعل يقرأها معنا إلى أن مات ، وعرق[1] (١١٢ــظ) جبينه عرقاً بارداً طيب الرائحة ،ودمعت عينه ، وظهر له من أمارات الخير عند موته ولله الحمد ماطيب القلوب لفقده ، وكان قد سأل في الليلة التي توفي فيها : ماهذه الليلة ؟ فقيل له : ليلة الجمعة ، فقال : غدا أفارقكم ، فمات في تلك الليلة ، ودفن يوم الجمعة .

ومن عجائب ما اتفق أنه كان يجتهد في تزويجي يحثني عليه ، ويقول : أشتهي أن أرى لأبي القاسم ولداً يمشي بين يدي ، فاتفق أن زوجني ، فولد لي ولدي أحمد الذي قدمت ذكره ، فسماه والدي باسمه ، وتكمل له من العمر سنة ، ومرض والدي ، فلما كان يوم الخميس الذي أعقبه ليلة الجمعة التي توفي فيها جئت إلى جنب الدار ، فرأيت أحمد وهو يمشي خطوات أول مشيه وله سنة وشهر ، فحملته وجئت إلى والدي وقلت له : يامولاي هذا أحمد قد مشى ، فنظر إليه وهو على

---

١ ــ ١١٢ وبياض .

جنبه فاستدعاه إليه فمشى إليه من باب المجلس إلى صدره ، فأخذه وقبل وجهه ، ودمعت عينه ، وتوفي تلك الليلة ، وقد أدرك ما تمناه رحمه الله .

أحمد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد :

أبو المعالي المدائني ، ويسمى أيضا القاسم ، شيخ حسن فاضل فقيه أديب شاعر ، قدم إلى حلب وأقام بها مدة في مدرسة شيخنا قاضي القضاة ، ثم سافر إلى بغداد ، وكتب بها الإنشاء في ديوان الخليفة المُسْتَعصم ، وسمعت من ينشد مدائح المستعصم التي نظمها في ذلك الوقت ، وهو حاضر لأنه كان يترفع عن الانشاد (١١٣ ــ و) لكنه كان دمث الأخلاق ، حسن المحاضرة ، طيب المفاكهة ، اجتمعت به في مجلس الوزير أبي طالب بن العَلقمي ، وجرى بيني وبينه مباحثة في الفقه .

وسأذكر ترجمته في حرف القاف ، وأورد شيئا من شعره الذي سمعته منه ، لأن القاسم أشهر اسميه ، لكني لا أخلي هذه الترجمة من شيء من محاسن شعره ، فمن ذلك ما أنشدني رضي الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد بن فلاح الهيتي الناظر بها بهيت ، قال : أنشدني موفق الدين بن أبي الحديد لنفسه ، وكتبها إلى أخيه عبد الحميد بن أبي الحديد وقد وضع كتابا يرد فيه على ضياء الدين نصر الله بن الأثير في كتابه الموسوم « بالمثل السائر » وسمى كتابه « الفلك الدائر على المثل السائر » :

المثل السائر ياسيدي ... صنفت فيه الفلك الدائرا
لكن هذا فلك دائر ... تصير فيه المثل السائرا

وقرأت من شعره بخطه في الموجه :

عجبوا من عذاره بعد حولين ... وما طال وهو غض النبات
كيف يزكو زرع بخديه ... والناظر وسنان فاتر الحركات

وقرأت بخطه : ولما رُتب بعض أصحابنا عارضاً للجيش ودخل بالخلعه قمت إليه وقبلته ودعوت له ، وقلت ارتجالا :

لما بدا رائق التثني ... وهو بأثوابه يميد (١١٣ ــ ظ)
قبلته باعتبار معنى ... لأنه عارض جديد